



25 نوفمبر 2006

هل يتصور أن يحار أحد في التفريق بين النمر والذئبة أو التمييز بينهما، وهل ممكن أن يتشابهها ويتشاكل الأمر؟!

وحتى لا يطن القارئ أن الأسماء قد تغيرت أو تبدلت أدكره بتعريف كل منهما. فالنمر من الحيوانات المفترسة يمتاز بالشجاعة والقوة والسلطنة، والذئبة حشرة صغيرة من ذوات الجناحين، تتغذى على الأوساخ وتنقل الجراثيم والأمراض.

ومع هذه الحقيقة يحار كثيرون في التفريق بين النمر والذئبة، فكيف حدث هذا وكيف وقع؟! لا شك أن هناك فسادًا في التصور، وفسادًا في الرؤية، وخطأ في الفهم والتخيل، أدى إلى هذا الخلط المؤسف والمحير، وليس هذا المثل وحده هو مقياس ذلك الخلط وهذه الحيرة، فهناك أمثلة كثيرة يهوي إليها هذا التصور المختل وهذا القياس العجيب، فقد لا يفرق الإنسان بين الخير والشر، بل قد يؤثر الشر على الخير، وقد لا يستطيع أن يفرق بين الجبن والشجاعة وبين الجد والضياع، وبين النصر والهزيمة لنفس الأسباب ولنفس التصور.

والحقائق دائمًا لا تتأثر بهذه الأباطيل والأكاذيب، وإنما المتأثرون هم من يصدقونها ويعيشون على وهمها وسرابها، وقد حدثنا القرآن وما زال عن هذا الصنف فقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا طُلُفًا إِنَّ الطُّلْفَ لَا يُعْطِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ وكان القرآن عمليًا معهم ومع المؤمنين؛ حيث أبان طريقهم الخاطئ، وأثار للمؤمنين طريقهم الذي يجب أن يكون فقال: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (42) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (43) إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ وَاللَّذِينَ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (44)﴾ (يونس).

يتكلم القرآن عن فساد التصور والأفهام وشروذ الطنون التي أودت بالناس وأهلكتهم حتى أصبح الحس مختلفًا، والبصيرة والبصر متغيرًا وفسادًا، لا يفرق مثلاً بين الدجال والرسول، ولا بين الخالق والصنم، وما زالت صور الاعتقاد الجاهلي شاخصه، يحدثنا القرآن عنها وعن أصنامها وشخصها، وضلال القوم بها، في وسط هذا الفساد في التصور، والعمامة من البصيرة، فيقول بعد أن عرض لأصنامهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الطُّلْفَ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَعَدُ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى (23)﴾ ثم يقول: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الطُّلْفَ وَإِنَّ الطُّلْفَ لَا يُعْطِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (28) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ (النجم).

وفي هذه الأيام تحل علينا مئونة الشيخ البنا، الرجل العملاق، مجدد القرن العشرين بغير منازع، صاحب الفهم العميق والتصور المحيط، والإدراك الشامل لحقائق الإسلام وأحكامه، والداعية صاحب البيان الرائع والبلاغة الأسيرة واللفظ الساحر والحكمة العميقة، والتنظيم الدقيق، والصفات الكثيرة المتنوعة، التي تستحيل أن توجد في رجل أو تجمع في إنسان، ومع هذا عاش الرجل يجالذ الفساد في التصور، والانحراف في الفهم، ويصارع الأباطيل، عسى أن يهدي الله الصالح، ويصلح الفاسد، ويبصر

الأعمى، ولكن الفساد كان عميقًا والظلام داجيًا؛ بحيث إذا أخرج الإنسان يده لم يكدرها، والكيد إبليسيًا وشيطانيًا شياطين  
الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض، ولكن الرجل صارعهم فصرعهم ونازلهم فهزمهم، فما وجدوا إلا لغة الخسة والوضاعة  
والخيانة، وهي الاعتداء على حياته وإزهاق روحه، وتفريق دمه بين الحساد والشائنين وقد كان!! وقُتل الرجل!!

وطن الأعداء أن العمى سيزداد، والبصيرة سترتكس أكثر فأكثر، ولكن المرضى قد كرهوا العلة بعد صراعٍ طويلٍ مع الآلام، وجهاد  
مريب مع الفساد في التصور، فهم يبحثون عن المنقذ، وتذكروا هذا الجرم الناسف، والخسارة التي لا تعوّض، فكانت الصحوة  
مصحوبةً بالحسرة، والإفاقة مفترنةً بالندامة، وستين سنة.

وقد رأيت هذه الحسرة على الرجل العظيم تتمثل في احتفالات بذكراه من أتباعه، ورأيت في الأردن الحبيب الاحتفال المنوي  
الذي ذكّر الجميع بالخسارة العظمى، وقد خُفّف من هول المصاب وجود شباب مؤمن تبع دعوة الرجل وسار على نهجه بقوة  
وإيمان وبلاغة وعرفان، يلقون الكلمات والأشعار التي تمجّد الذكرى، ومن هؤلاء المهندس أيمن محتوم؛ حيث مما قال:

قد جئت يا "حسن البنا" على قدر فكنت أحسن في البانين بنيانا

وجئت جنح الدجى بدّرًا قد اكتملت أنواره وأضاءت ليل دنيانا

ويا فتى علم الدنيا بحكمته وظل في شأنه التاريخ هيماننا

يا سيدي يا مجير الشرق من فتني وحاملًا راية التحرير طلعانا

قُتلت يا "حسن البنا" بمن قتلوا "القسام" قبل و"ياسينا" و"عدنانا"

ظلت دماؤك تجري وهي نازفة إلى "علي" ووافقت جرح "عثمانا"

ناديت يا "حسن البنا" أتركنا على الهجير نسام الخسف يتمانا؟

نحن نجرع كأس الذل مترعة وأنت ترحل في صممٍ وتنسانا

ولا دليل سوى لمع السراب على وجه الصحاري وموجًا من بلايانا

اباعت النهضة الكبرى وموقظها ومجري الماء سحًا وهتاننا

ومنقذ الجيل من ضعفٍ ألمّ به فعادت أصلب بنيانًا وأركاننا

أحييت كل موات في ضمائرنا لما صنعت من الإنسان إنساننا

والله يا "حسن البنا" وفي دمننا ديبٌ سنقضيه عرفانًا وشكرانا

المسلمون بخير سيدي فهم باقون ما بقي التاريخ "إخوانًا"

وسيطل الإمام مجدد القرن العشرين حيًا في ضمائر المصلحين والعاملين لنهضة الشرق.